آليات التماسك النصي في المنجز البلاغي العربي
الباقلاني أنموذجا

The text cohesion mechanisms in the Arabic Rhetoric: Al-Bakilani a Sample

سعاد نكاع•

Abstract

The link between the Old Rhetoric and the text linguistics is united in many facts and even close in terms of an effective dealing with the literary text, since there are a lot of ideas on which stood the text linguistics. It is just a product of the Old Rhetoric's research. So the study of the speech's practice in the Old Rhetoric includes a number of visions and particular rules to organize a specific text.

This is what we'll stand on through Al-Bakilani's representation about the text cohesion mechanisms.

Key Words: Old Rhetoric – text cohesion mechanisms-text linguistics - Al-Bakilani - text.

تختلف لسانيات النّص عن باقي العلوم المعيارية، فهي ليست«مجموعة من القوانين الصارمة الّتي تطبق على النّص من الخارج، بل إنّها تعني مجموعة من القوانين الاختيارية الّتي تستخلص من النّص ذاته»[1]، ولعل هذا التعريف ينفي عنها صفة المعيارية الّتي وقعت فيها البلاغة من قبل وغيرها من العلوم العربية الأخرى، إذ إنها تترك للنّص مسافة من أجل التحرك أكثر، وعليه يكون لدى الكاتب / المؤلف حرية أكبر، فليس هناك قوانين تقيّده كما فعلت العلوم والمناهج السابقة.

ومنه فإنّ عمل "عالم النّص" يرتكز على وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النّصية بمستوياتها المختلفة، حيث «يتكفل هذا المنهج الألسني النصي بدراسة بنية النصوص وكيفية

• طالبة دكتوراه بجامعة مستغانم

[1]– براون، ويول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي زليطي، ومنير التريكي، (جامعة الملك سعود، 1997)، ص32.

اشتغالها، من منطلق مسلمة منطقية تقضي بأن النص ليس مجرد تتابع مجموعة من الجمل، وإنما هو وحدة لغوية نوعية ميزتها الأساسية الاتساق والترابط»[1].

وعلى هذا الأساس فإنّ حقل اشتغال لسانيات النّص، والوحدة المركزية التي يرنو إلى تحليلها هذا العلم هي (النّص)، فالنص ليس مجرد توالي للجمل ورصف لها، وإنّما هو دراسة لتلك الروابط اللغوية التي تجمع النص في نسق واحد. فما هو رابطها مع البلاغة العربية؟

البلاغة ولسانيات النص:

إن العلاقة بين البلاغة القديمة ولسانيات النص، تكاد تكون متّحدة في الكثير من الحقائق والتحليلات، ومتقاربة من حيث التعامل الفعلي مع النص الأدبي، إذ هناك الكثير من الأفكار التي قامت عليها لسانيات النص والتحاليل النصية إنّما هي من نتاج ‹‹بحوث البلاغة القديمة؛ فالبحث في ممارسة الخطاب (الكلام) في البلاغة القديمة يضم عددا من النظرات والقواعد الخاصة بتنظيم نصوص محددة؛ إذ أنه قد استخدمت في المباحث المتعلقة بترتيب الأفكار وزخرفتها، قواعد بناء محددة للنصوص، لأهداف بلاغية محددة .... »[2].

وعلى الرغم من غياب المصطلحات أحيانا والتعريفات بهذه المفاهيم في أحايين أخرى، إلا أن الممارسات تبقى قائمة، ويؤيد هذا القول ما ذهب إليه "محمد العبد" حين يصرح بأن المفاهيم متداولة، ولكن تبقى الاستعمالات للمصطلحات غائبة فيقول: ‹‹ ...فلم يألفوا –في تنظيراتهم– جمع تلك التحقّقات في مفهوم النص البنائي، بيد أن القدماء من اللسانيين البلاغيين، قد أتيح لهم– على الرغم من ذلك– أن يلاحظوا لتلك التحقّقات مقومات " نصيّة" جوهرية مشتركة، فضلا عما لاحظوه لكل منها... . »[3].

---

[1]– الصبيحي، محمد الأخضر ، مدخل إلى علم النّص ومجالات تطبيقه، ط1، (الجزائر/لبنان، منشورات الاختلاف/الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008)، ص59.

[2]– بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ط1،(القاهرة ،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2004،). ص20.

[3]العبد، محمد، النص والخطاب والاتصال، ط1، (القاهرة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، 2005) ، ص100.

كما أنّ هذه العلاقة القائمة بين هذين العلمين تتوطد أكثر من خلال مباحث هامة، أين ‹‹تتوجه البلاغة إلى المستمع أو القارئ لتؤثر فيه، وتلك العلاقة ذات خصوصية في البحث اللغوي النصي»[1].

إن هذه الصلة الوثيقة بين البلاغة ولسانيات النص، هي ما جعلت "فان ديك" يقول: ‹‹ إن البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص إذا نحن أخذنا في الاعتبار توجهها العام، المتمثل في وصف النصوص وتحديد وظائفها المتعددة، لكننا نؤثر مصطلح علم النص، لأن كلمة بلاغة ترتبط حاليا بأشكال أسلوبية خاصة، كما كانت ترتبط بوظائف الاتصال العام ووسائل الإقناع»[2]، فلا تزال القواعد والأدوات التحليلية التي تمّ استنباطها من البحوث البلاغية، ذات أهمية في التحليل النصي، بحيث لا يمكن الاستغناء عنها؛ فالمتفحص للبحوث النصية والبلاغية يلاحظ ذلك التواشج والتعالق بين هذين العلمين.

ومن هذا المنطلق فإنه لا يمكن لنا أن ننكر مساهمة البلاغة القديمة في قيام لسانيات النص، وذلك بما قدمته لنا من معارف ونظريات وقواعد، كانت‹‹ ... معينا للآراء والاقتراحات التي طُرحت فيما بعد، وبخاصة من خلال النظريات الحديثة...فهي تضم الأفكار الجوهرية التي عنيت الدراسات النصية بالتوسع فيها ومن ثمّ توجد جوانب اتفاق عدة بينها إلى حد يصعب معه إغفال الأثر، حتى تكون درجة خفائه مرتفعة»[3]، وبالتالي فالنص جنس بلاغي تتحقق جنسيته في أبنيته اللغوية الخاصة ودلالتها المجازية، لأن كل ما يصير لنا هو نص بلاغي والبلاغة نفسها نص.

وعلى هذا الأساس ينطرح لدينا إشكال ظاهره في الرحمة العلمية، وباطنه من قبله صعوبة في تحيين المنجز البلاغي العربي، وتطبيق المفاهيم الإجرائية اللسانية عليه؛ خاصة إذا تعلق الأمر بالنص المقدس عند الباقلاني، الذي حاول أن يجعل من النص القرآني كلية نسيجية مرتبطة النسق، ومتحدة الجوانب، وفق مقصدية معينة ومقبولية تلقفتها الأعين قبل القلوب، فأني كان له ذلك؟ وكيف نستطيع تلمّس المعايير النصية داخل منجزه البلاغي

---

[1] بحيري، سعيد حسن ، المرجع السابق، ص21.

[2] المرجع نفسه، ص20.

[7] ينظر : المرجع نفسه، ص143-144.

الموسوم بإعجاز القرآن،دونما ليٍّ لعنق النصوص، على حد تعبير المنظّر السعودي عبد الله الغذامي في أطاريحه.

أ-التماسك النصي عند أبي بكر الباقلاني (ت403هـ):

من المعلوم أن البلاغة إنما نشأت لتبحث في الخصائص المائزة للقرآن الكريم من خلال "فكرة إعجاز القرآن الكريم"، ولقد كان أبو بكر الباقلاني(ت403هـ) من الذين وجهوا بحوثهم للبحث في هذه الظاهرة، فجاء كتابه موسوما بـ" إعجاز القرآن"، ضمّنه مجموعة من الآراء ذات أهمية كبيرة لفهم جمالية الأسلوب القرآني، ولم يغفله هذا عن تناول ظواهر الأسلوب الشعري.

تتجلى تلك الآراء النقدية الخاصة "بالباقلاني" من خلال كتابه "إعجاز القرآن" بصفة خاصة، إذ قام بتقديم دراسة نقدية خاصة بمعلقة "امرئ القيس" ، فضلا عن قصيدة "البحتري" ،حيث كان هدفه في هذا إبراز مواقع الضعف والخلل في نظم قصيدتين تعتبران من عيون الشعر العربي، وذلك من أجل إعلاء شأن القرآن وتفرده بالإعجاز نظما ومعنى.

ولأجل ذلك ‹‹يعتمد الباقلاني معرفيا على النص بصفته مصدرا من مصادر المعرفة المقدمة عنده على العقل››[1]، وعلى هذا الأساس جاء المنهج الذي احتوى هذه الدراسة منهجا معرفيا يحمل خاصية النقد، كما أنه قام بدراسة الأوجه البلاغية للخطاب، وذلك بالمقارنة بين النص الأدبي-شعرا ونثرا في بعض الأحيان-وبين النص القرآني، من أجل إبراز تفرد القرآن بالإعجاز عن غيره من كلام البشر؛ في بلاغة النظم وبراعة التأليف، فيا ترى كيف جاءت آراء الباقلاني؟وإلى أي حد تتوافق مع اللسانيات النصية المعاصرة؟

أ- مفهومه للنص:

إن غياب تعريف واضح وصريح لمصطلح النص في التراث* - باستثناء التعريف المعجمي- لا يعني عدم تكوّن معرفة بالصورة الذهنية لهذا المفهوم لديهم، فلقد عرفوا النص كمفهوم، بعد استيعابهم له، وانطلقوا في دراسته وتحليله، " لهذا كان التعريف غائبا ولكن ممارسته حاضرة"[2].

---

[1] علي، أحمد يوسف ، قراءة النص، دراسة في الموروث النقدي، ط2، (القاهرة، مكتبة الآداب، 2008)، ص211.

[2] ناعوس بن يحي، تحليل الخطاب في ضوء لسانيات النص، رسالة دكتوراه مخطوط، الجزائر، ص114.

يعتبر الباحثون "الباقلاني"(ت403هـ)، من أوائل العلماء الذين أشاروا إلى بنية النص القرآني في أنه كل موحد، فإذا ما نحن نظرنا إلى أرائه في كتابه " إعجاز القرآن" تتضح لنا هذه النظرة الثاقبة، من ذلك قوله: ‹‹... إذا تأملته تبيّن بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم، إنه خارج عن العادة وأنه معجز؛ وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميّزٌ حاصلٌ في جميعه»[1].

والحق أنّ ما يمكن استخلاصه من هذا القول، أنّ الباقلاني كان على دراية بالمفهوم الكلي للنص – حاصل في جميعه–، كما أنه فرق بين ما هو نص وما هو خطاب، فجعل النص في الذي تمّ تثبيته بالكتابة، في حين يكون الخطاب ما تلفظ به.

وبما أن مفهوم النص يحيل إلى فكرة النسج، وتبدو هذه الفكرة واضحة عند "الباقلاني" وذلك في معرض حديثه عن ‹‹ رجلين يتساويان في العلم بالصناعة والنساجة، ثم يتفق لأحدهما من اللطف في الصنعة، ما لا يتفق للآخر، وكذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون مع العلم بكيفية النظم»[2]، فناظم النّص كالصانع والنسّاج بحيث يخرج النّص في شكل قطعة نسيج متماسكة، وهذا يذكرنا بإشارة"رولان بارث"إلى أنّ النّص يشبه نسيج العنكبوت. هذا عن مفهومه للنص وتصوره له، فكيف يا ترى عالج تماسكه؟ وما هي أدوات التماسك عنده؟.

ب- معايير النصية عند الباقلاني:

1-النظم والتناسق:

يتحدّث "الباقلاني" عن حسن تآخذ آيات من سورة القصص وكأنها قطعة جملية واحدة، رادا جمال تناسقها وتماسكها إلى ذلك النظم الذي يحكم آياتها من البداية حتى النهاية، ‹‹ وهي خمس كلمات متباعدة في المواقع، نائية في المطارح، قد جعلها النظم* البديع أشد تآلفا من الشيء المؤتلف في الأصل، وأحسن توافقا من التطابق في أول الوضع »[3]، وبهذا يشير

---

[1]الباقلاني، أبو بكر محمد ، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دط، (دار المعارف، القاهرة، دت،)، ص35.

[2]المصدر نفسه ، ص295.

*يأتي اهتمام الباقلاني بمصطلح النظم كونه أداة تظهر إعجاز القرآن الكريم، وبالتالي فالمصطلح في حد ذاته يمثل الاعتقاد الأشعري لدى الباقلاني، إذ يبقى دائما مرتبطا بالفكر النظري الأشعري، وهو مبحث عقائدي أشعري أكثر منه بلاغي أو نقدي.

[3]الباقلاني، أبو بكر ، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص194.

"الباقلاني" من خلال قوله هذا إلى ذلك الرصف النحوي والصوتي الذي جمع هذه الجمل وجعلها تبدو كلا موحدا فإعجاز القرآن في رأيه جاء بنفس كلام العرب ومن جنس الحروف التي تقوم بها لغتهم وهذا ما جعله مألوفا لديهم ولكن عجزوا على أن يأتوا بمثل نظمه.

كما تجدر بنا الإشارة إلى أن مصطلح "النظم" كان يورده" الباقلاني" مقترنا بمصطلح "التأليف"، وبما أن التأليف كان يعني عند القدامى ترتيب المعاني، يقودنا هذا القول مباشرة إلى الاعتقاد بأن مصطلح النظم كان يقصد به العلاقات النحوية في حين كان يعني بالتأليف العلاقات الدلالية.

ويقول في موضع آخر:‹‹ فالذي يشتمل عليه بديع نظمه، المتضمن للإعجاز وجوه: منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه. خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم»[1]، حيث يؤكد "الباقلاني" دائما على أهمية التماسك النحوي، والمتمعن لكتابه إعجاز القرآن يلتمس منه كبير الاهتمام لهذا المبحث.

فإذا ما قلنا بأن "الباقلاني" كان يقصد النظم توخي معاني النحو، فلزاما علينا أن نبحث عن مظاهر الاتساق(النظم) في أقوال الباقلاني، فأثناء تناوله للمسائل الكبرى والتي تساهم في تماسك النص، لم يغفل تلك الجزئيات والتي تمنح النص نصيته:

الاستبدال:

لم يتناول "الباقلاني" ظاهرة من الظواهر اللغوية بالتحليل دون أن يضرب لذلك مثلا، ولقد كانت في غالبها من القرآن، فعلى نحو ما ذكرنا مسبقا أنه كان يرى في الشعر موضع الضعف والهوان دائما.

يتحدث الباقلاني عن ظاهرة الاستبدال في قوله تعالى:﴿ *وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا وَجَعَلْنَاهُ نُورًا*﴾[2]، فيبين كيف جاز التعبير عن القرآن الكريم بأنه"روح ونور" وأن ذلك‹‹ لأنه يحي الخلق، فله فضل الأرواح في الأجساد، ولأنه يضيء ضياء الشمس في الأفاق»[3]*.

---

[1] المصدر نفسه، ص 35.

[2] سورة الشورى، الآية52.

[3] الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص284.

وبما أنّه "الباقلاني" يرى بأنّ القرآن الكريم جاء في جملة واحدة، فمن البديهي أن يكون الاستبدال داخل الجملة الواحدة، وقس على ذلك الكثير من العبارات الّتي وردت في القرآن.

الحذف:

لا يمكن أن يخفى على أي دارس أنّ التراث العربي بمختلف توجهاته، قد تعرض إلى هذه الظاهرة وقد أفاضوا في معالجتها، كما أورد "الباقلاني "مبحث الحذف في فصل كان يتحدث فيه عن وجوه البلاغة، يعرفه قائلا:«فالحذف: الإسقاط للتخفيف، كقوله تعالى:﴿ واسْأَلْ الْقَرْيَةَ ﴾[1]، وقوله أيضا:﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾[2]، وحذف الجواب كقوله:﴿ *وَلَو أَنَّ قُرآنًا سُيّرت به الجبَالُ أو قُطّعت به الأرض أو كُلّم به الموتى*﴾[3]، كأنّه قيل: لكان القرآن، والحذف أبلغ من الذكر، لأنّ النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب»[4].

الاتساق المعجمي*:

أ-التكرار:

يقول" الباقلاني":« ومن البديع التكرار: كقول الشاعر:

هلاّ سألت جموعَ كِنْـ   دة يومَ ولّوا أينَ أينا؟

...ونظيره من القرآن: قوله تعالى:﴿ *فإنّ مع العُسر يُسرا، إنَّ مع العُسر يُسرا*﴾[5]، وكالتكرار في قوله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرونْ﴾[6]، وهذا فيه معنى زائد على التكرار، لأنّه يخبر عن الغيب»[1].

---

*ولكي تكون أقوالنا واضحة أكثر، ولا نحمل أقوال الإمام شيئا لم يقصده، فهذا المبحث قد تم تناوله من قبل القدامى من باب التشبيه و أوجه التشبيه والإستعارة ...وهذا ما اصطلح عليه القدامى ، وما نرمي إليه هو إعطاء المفاهيم التراثية صبغة اللسانيات المعاصرة وهذا بغرض نفي ما يقال عن الدراسات التراثية بأنها جامدة ولا تصلح.

[1]سورة يوسف، الآية82.

[2]سورة محمد، الآية21.

[3]سورة الرعد، الآية31.

[4]الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص262.

*بداية علينا التوضيح من أجل ألاّ يخرج البحث عن مصداقيته، هناك من المصطلحات المعاصرة لم يتم إيرادها في الكتب التراثية، ولكن كان لزاما علينا أن ندرجها كي نوضح تلك المفاهيم التراثية ونعطيها صبغة الاصطلاحية، وهذا ما أملته علينا طبيعة البحث.

[5]سورة الانشراح، الآية5-6.

[6] سورة الكافرون، الآية1.

ب- **المطابقة:**

أورد" الباقلاني" قوله هذا في معرض حديثه عن أقسام البديع، يقول:« ... ويرون من البديع ما يسمونه المطابقة، وأكثرهم على أنّ معناها أن يذكر الشيء وضده كالليل والنهار، السواد والبياض...ذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور ما قاله بعضهم:" أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع، فأدخلتنا في ضيق الضمان" ونظيره في القرآن:﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[2]»[3].

لقد أخذ علم البديع الحظ الوافر في الدراسات اللغوية العربية القديمة، إذ لم يترك العلماء شاردة ولا واردة في هذا الباب لم يذكروها، والتوضيح الذي أورده الباقلاني عن مبحث المطابقة يتطابق مع ما جاء به"هاليداي ورقية حسن" في مبحث الاتساق المعجمي ظاهرة التضام، إذ يتم في بعض الأقوال إيراد ألفاظ متعارضة تساهم في تماسك النّص وإبراز نصّيته. وهذا ما جسّده قول الباقلاني حول المطابقة.

2-الانسجام عند الباقلاني:

رأينا سابقا أن النظم عند "الباقلاني" يقصد به الترتيب النحوي للكلمات، وكان دائما يقرنه بالتأليف الذي هو توخي ترتيب المعاني، وما يمكن للباحث الجاد -في هذا المجال-أن يستشفه من آراء الباقلاني في هذا المبحث بالتحديد تلك التي تنبئ عن وعيه بمراتب الانسجام، فهي على الرغم من أنها ليست واضحة المعالم ولكنها تتطابق إلى حد ما مع آراء اللسانيات النصية.

•خاصية التدرج:

لم يصطلح "الباقلاني" على هذه الظاهرة بمصطلح التدرج، وإنما نجده في بعض المواضع يصفها بخاصية الخروج، ويريد به الانتقال من معنى إلى معنى ويسميه البلاغيون في اصطلاحاتهم حسن التخلص،›› فعرّفوه بأنه امتزاج ما يقدمه الشاعر من البسط، أمام المدح أو الذم أو غيره من نسيب أو وصف، أو أدب أو زهد»[4]، ويقصد هاهنا بالبسط أي التمهيد

---

[1]الباقلاني، المصدر السابق، ص106.

[2] سورة البقرة، الآية179.

[3]الباقلاني، المصدر السابق، ص80.

[4]مخلوف، عبد الرؤوف، الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، المرجع السابق، ص248.

أو نحوه، بحيث لا يشعر القارئ بتلك النقلة من غرض إلى غرض وحسن التخلّص كان من بين أهم المقومات الشعرية التي كان يحرص عليها الشعراء قديما.

يدرك" الباقلاني" جيدا قيمة هذه الظاهرة في تماسك النص، ولهذا نلمحه يعالجها في مواضع مختلفة من بينها:قوله تعالى في سورة الإسراء من بدايتها:﴿*سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى... لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًا كَبِيرًا*﴾[1]، يقول:‹‹ هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصور في صورة المنقطع، وقد تمثل في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره واقعا موقع ما لا ينفك منه القول وقد يتبرأ الكلام المتصل بعضه من بعض، ويظهر عليه التشبيح والتباين لخلل الواقع في النظم. وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلا، ولم يبن عليه تميز الخروج»[2].

يشكل التدرج في الموضوع(الخروج) في رأي الباقلاني الرابط الدلالي بين هذه الأحداث، وبالتالي يصبح القول متصلا بعضه ببعض رغم انفصاله، ومن وجهة نظره أن هذه خاصية في القرآن دون غيره ويضرب أمثلة من الشعر العربي مبينا ضعفها في مثل هذه المواضع.

يحاول "الباقلاني" في خضم تنزيهه للقرآن وأسلوبه وتبيان وجوه الإعجاز فيه* بيان خاصية التدرج التي ضمها مبحث الانسجام يقول في الآيات التي وصفت حادثة موسى عليه السلام في الواد المقدس:﴿*... فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*﴾[3]، فإنه يقول: ‹‹ انظر إلى ما أجري له الكلام من علو أمر هذا النداء وعظم شأن هذا الثناء، وكيف انتظم مع الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية وما دل عليها من قلب العصا حية...وانظر كيف ينتقل القرآن من قصة إلى قصة ومن باب إلى باب من غير خلل في نظم الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع التأليف وبليغ التنزيل»[4].

---

[1] سورة الإسراء، الآية 1-2 .

[2] الباقلاني، المصدر السابق، ص209-210.

* إن ما نصبو إليه بالتحديد هو تتبع آراء الباقلاني البلاغية في كتابه الإعجاز وما تنبو عنه، وانتقاء منها ما يخدم البحث، ولا ناقة لنا ولا جمل إذا ما كانت هذه الآراء خاصة بالقرآن أو النتاج الأدبي.

[3] سورة النمل، الآية 08.

[4] ينظر: الباقلاني، المصدر ،السابق، ص189-190.

يشير "الباقلاني" إلى تدرج الوقائع والأحداث في هذه القصّة، وكيف أنّها تخضع لنظام تراتبي، بحيث تلمح ذلك الاختلاف في المواضيع ولكنك لا تحس بالانتقال بينها، وكأن هناك خيطا يربط ما تقدم بما سيأتي، بدءا بالمقدمة وحتى الخاتمة. ويقول في موضع آخر مبينا موقفه يقول :‹‹ فنظم القرآن على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة، يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب، –ويقابله هاهنا بالشعر– ألا ترى أن كثيرا من الشعراء، قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره والخروج من باب إلى سواه»[1].

وانطلاقا من هذا نؤكد أن الوعي بخاصية هذه الظاهرة –التدرج– كان سائدا لدى القدامى، ويظهر هذا من خلال أقوالهم عامة، وما أكدناه لدى" الباقلاني" خاصة* وممّا لا يخفى على دارس ذلك المبحث البلاغي والنقدي(حسن التخلص)، الذي أخذ بوافر الحظ من اهتمامات الدراسات اللغوية القديمة.

●تنزيل الخطاب:

إن لم نكن نغالي، يمكننا القول إن هذا المبحث عند" الباقلاني" قد ضم معظم مباحث الانسجام التي أوردها علماء اللسانيات النصية، يقول في مفهومه:‹‹ يقصد به ترتيب ذكر الموضوعات بحسب أهميتها أو على حسب وقوعها في الطبيعة أحيانا ليوافق الطبع كما يقولون»[2].

وكعادته يعود إلى القرآن من أجل أن يثبت وجهة نظره نحو هذه الظواهر اللغوية،على اعتبار أنّ القرآن يحمل أوجه بلاغية لا يمكن للكلام البشري أن يحتويها، وهو في هذا الصدد يضرب مثلا بقوله تعالى:﴿حُرّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وخَالَاتُكُمْ وبَنَاتُ الْأَخ وَبَنَاتُ الْأُخْت وَأُمَّهَات نسَائكُمْ...﴾[3]، يقول:‹‹ نحن نعلم أن قوله تعالى: حرمت

---

[1]ينظر: المصدر نفسه، ص 38.

*ينطلق أبو بكر الباقلاني في تحليله لهذه الظواهر اللغوية من النص القرآني، مؤكدا أن الظواهر البلاغية التي تحمل الإعجاز خاصة بالقرآن، لذلك اقتصر تمثيله لهذه الظواهر على القرآن الكريم فقط، في حين يظهر السلبي منها في أقوال العرب.

[2]عبد الرؤوف مخلوف، الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، السابق، ص451.

[3]سورة النساء، الآية 23.

عليكم أمهاتكم، ليس من قبيل الذي يمكن إظهار البراعة فيه وإبانة الفصاحة عليه...»[1]، إلى آخر كلامه فالعبرة في رأيّه أن البراعة والتفوق والتأليف يكمن في تنزيل الخطاب وهو يأتي بظهور الحكمة في ترتيب الألفاظ والمعاني وذلك من أجل ترتيب الأحداث، وهذا ما جادت به الآية السابق ذكرها فضمت خاصية الترتيب في الوقائع، فجاء تحريم الأم ثم البنات...الخ، يعلق "الباقلاني" على أنّ مجيء تحريم الأم أولّا لعظم حرمتها ثم توالى تحريم النساء كل حسب الدرجة.[2]

وركحا على ما سبق، وبالنظر إلى أقوال "الباقلاني" السابق ذكرها في هذا الصدد نجده قد تفطن إلى مواطن الانسجام في الخطاب، فأولا نجده يشير لموضوع الخطاب ألا وهو"التحريم"، وهو الذي يحدث الترابط من أول الآية إلى آخرها، من ثم يلمّح لخاصية ترتيب الخطاب والتي تكون بترتيب الوقائع والأحداث في الآية ويقول في ختام مناقشته لهذه الآية:‹‹ والكلام في إظهار حِكَم هذه الآية وفوائدها يطول –وهكذا– لم تنفك هذه الآية منا الحِكَم التي تخلق حكمة الإعجاز في النظم والتأليف والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراءة في وجه الترصيف»[3].

المماثلة (الخطاب التام والخطاب الناقص):

أورد "الباقلاني" مصطلح المماثلة من قبيل مفهوم الخطاب التام والخطاب الناقص،يقول:«وذلك أن يقصد الإشارة إلى معنى فيضع ألفاظا تدل عليه،وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذَي قصد الإشارة إليه»[4]. وهذا ما ذهب إليه "فانديك" حينما تحدث عن الخطاب الضمني، على أن لا يصرح المتكلم بما يريده وإنّما يكتفي الإشارة والتمويه.

يورد "الباقلاني" مثالا عن ذلك من أجل التوضيح أكثر، في معرض الحديث عن قول "يزيد بن الوليد"، وهو خطاب ضمني لم يصرح فيه "يزيد" عما كان يقصده،وذلك لما بلغه أن "مروان بن محمد يتلكأ عن بيعته فكتب إليه:« أمّا بعد،فإنَي أراك تقدم رجلا وتأخر أخرى

---

[1]الباقلاني، المصدر السابق، ص207.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص207-208.

[3]الباقلاني، المصدر السابق، ص208.

[4]نفسه، ص78.

فاعتمد على أيتهما شئت»[1]. ويجب الأخذ بعين الاعتبار أن تكون مقصدية المتكلم حاضرة في هذا النوع من الخطابات، لكي لا يتصف النّص بالغموض والإبهام.

موضوع الخطاب:

يشير علماء لسانيات النص إلى أنّ كل نص يحتوي على فكرة تتكرر في مواضع مختلفة، تكون بذلك هي موضوع النّص، وهذا ما أشار إليه" الباقلاني" أثناء معالجته لفكرة تكرار الآيات التي تروي قصة موسى عليه السلام، يقول تعالى:﴿*إِنِّي آنَسْتُ نَاراً، سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوآتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبسٍ لَعَلَكُمْ تَصْطَلُون*﴾[2]، ذَكَرَ أنّ هذه القصة ترددت في غير تلك الصورة، وقال تعالى في سورة طه في هذه القصة:﴿*لَعَلّـي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدَى*﴾[3]، وفي موضع:﴿ لَعَلي آتيكم منْهَا بخَبَرٍ أَوْ جذْوَةٍ منْ النّارِ لَعَلَكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[4].

يشير "الباقلاني" في هذه المواضع الثلاثة، إلى أنّ الله سبحانه وتعالى قد استخدم كلمة (شهاب)في موضع، وكلمة(قبس) في موضع، و(جذوة) في موضع ثالث، ويعلق على ذلك بقوله: أنّه« قد تصرّف في وجوه، وأتى بذكر القصة على ضروب ليعلّمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك، ولهذا قال:﴿*فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِه*﴾، ليكون أبلغ في تعجيزهم وأظهر للحجة عليهم، وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها تامة في معناها »[5]، ولذلك يدرك" الباقلاني" جيدًا أنّه عندما تتكرر فكرة أو آية في عدّة مواضع، يدل هذا على مدى أهميتها، في التأكيد على الفكرة المراد إيصالها للمتلقي بهذه الطريقة ، وبالتالي تكون التفاتة "الباقلاني" إلى تكرار الموضوع الواحد في القرآن، بعبارات مختلفة النظام متباينة بالعبارة التفاتة تدل على فهم ثاقب على أنّ تكرار الفكرة إنّما يكون للتذكير بها وترسيخها لدى المتلقي.

---

[1] ينظر: الباقلاني، المصدر السابق، ، ص 78.

[2] سورة النمل، الآية07.

[3] سورة طه، الآية10.

[4] سورة القصص، الآية29.

[5] الباقلاني، المصدر السابق، ص288.

3-القصدية من منظور الباقلاني:

لقد أقرّ "دي بوجراند" أنّ اتخاذ الكاتب/ المؤلف طريقة معينة يخرج بها نصه للعيان، تدخل ضمن مبحث القصدية وهذا ما تمّ التفصيل فيه سابقا، وانطلاقا من هذا نجد أن" الباقلاني" قد تفطن إلى هذه النظرة اللسانية فيقول: ‹‹ إنّ الشعر إنّما يطلق، متى قصد القاصد إليه- على الطريق الذي يعتمد ويسلك ولا يصح أن يتفق مثله إلاّ من الشعراء... لأنّه لو صح أن يسمى كل من اعترض في كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر، أو تنتظم انتظام الأعاريض كان النّاس كلهم شعراء»[1]. ثمّ يواصل قوله فيقول:‹‹ فأمّا الشعر إذا بلغ الحدّ الذي بيناه، فلا يصح أن يقع إلاّ من قاصد إليه»[2]. إنّ ما يمكن قوله أنّ لكل نص بنية قصدية، فكما أنّ لكل فعل قصد فكذلك القول، ويكاد علماء العربية نقادا وبلاغيين أن يجمعوا على ضرورة أن يكون لقائل الشعر قصد.

وعلى الرغم من أنّ" الباقلاني" قد قصر نظرته لغاية القصدية في الغرض الشعري فقط، دون غيره من الأقوال الأخرى، إلاّ أنّ ما يهمّنا هو تجسُّد هذه النظرة لديه، وهي أن يكون لقائل الشعر قصدا لذلك، أي لا يمكن أن نقول على نصّ ما أنّه نصّ شعري دونما أن ندرك غاية المتكلم بأنّه كان يرمي إلى قول الشعر، ولقد ذهب بهذا إلى أبعد من ذلك يقول: ‹‹وهذه طريقة من ينصف في الاختيار، ولا يعدل به غرض/ يخص، لأنّ الذين اختاروا الغريب فإنّما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم، وإظهار التقدم في معرفته، وعجز غيرهم عنه، ولم يكن قصدهم جيّد الأشعار لشيء يرجع إليها في أنفسها»[3]. وبناءً على هذا يصرح بأن غاية الكلام التي وضع لها في الأصل إنّما هي الإبانة عن الأغراض التي في النفوس[4]. فيكون النتاج الأدبي(النّص) كالمرآة تعكس ما يجول في النفس، ليحمل بهذا صفة الظهور والإبانة من المفهوم المعجمي للنّص عند العرب.

---

[1]- ينظر: الباقلاني، المصدر السابق، ص54.

[2] نفسه، ص55.

[3]- نفسه، ص117.

[4]- نفسه ، ص 117.

ويقول في ما يترتب عن البلاغة من الفهم والإفهام:« ومحصولها الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى وأجزل لفظ، وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام»[1]، يتقاطع قول الباقلاني هاهنا مع قول "دي بوجراند"، فعندما تحصل الإبانة عمّا في النفس يستدعي ذلك أن يكون هذا في صورة معينة، تتجسّد من خلالها قصدية المتكلم في أن يكون قوله على أحسن معنى وأجزل لفظ(الاتساق والانسجام)، وبهذا تتحقق الغاية المرجوة من الكلام.

هذا والكلام يطول عند"الإمام" في هذا الغرض، فالنصوص التي أوردناها على قلّتها بالغة الدلالة على أهمية القصد عنده، وبخاصة في القول الشعري.

ولاقتصاره الحديث عن الشعر دون غيره، يعلق أحمد يوسف علي في معرض حديثه عن الفصاحة عند الإمام فيقول:‹‹ ومن ثمّ ليست الفصاحة مجرد الدلالة عمّا في النفس لأنّ الذي أصابته الحمى، قادر على أن يدل عمّا به، وكذلك المجنون، ولكن الفصاحة تتعدى ذلك، لتقع في دائرة القصد والاختيار للعبارات»[2]، فلعلّ هذا الكلام يبرر اهتمام الباقلاني بالشعر عن غيره من الأقاويل.

4-التّناص:

لقد استوفت قضية السرقات بوافر الحظ من الدراسات اللغوية العربية القديمة، فلا تجد مدونة تناولت القضايا اللغوية، والشعر بصفة خاصة إلاّ وقد تناولت هذه المسألة، ولم يشذ الباقلاني عن القاعدة، على الرغم من أنّه لم يفض فيها، إلاّ أنّه بيّن فيها شذرات مهمة، يقول:« ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين"رسائل عبد الحميد" وطبقته وبين طبقة من بعده، حتّى إنّه لا يشبه عليه ما بين"رسائل ابن العميد"أهل عصره ومن بعده ممن برع في صنعة الرسائل،/وتقدم في شأوها، حتّى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين، حتّى خلّص لنفسه طريقة، وأنشأ لنفسه منهاجا»[3].

يشهد قول "الباقلاني" السابق ذكره وبخاصة الجمل التالية:(جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين...)، على أنّ هناك تداخل بين النصوص على مستوى وعي الكاتب سواء

[1] نفسه، ص286.

[2] علي، أحمد يوسف، قراءة النص دراسة في المورث النقدي، السابق، ص166.

[3] – الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص121.

كانت هذه النصوص ممن سبقوه أم كانت ممن عاصروه، و من ثمّ يمكن له أن تكون لديه نصوصا خاصة به، تحمل بصمة أسلوبه.

ثمّ يقول:« وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصر، وتتدانى رسائل كتّاب دهر حتّى تشتبه اشتباها شديدا، وتتماثل تماثلا قريبا، فيغمض الأصل، وقد يتشاكل الفرع والأصل...»[1]، ثمّ يقول في موضع آخر: على أنّك قد تصادف« للمتقدم معنى قد طمسه الآخر بما أبرّ عليه فيه، وللمتأخر معنى أغفله المتقدم، ثمّ إنّك بعد ذلك تجد معنى توافدا عليه، وتوافيا إليه فَهُمَا فيه شريكا عنان، وكأنّهما رضيعا لبان»[2]، وفي هذا تأكيد على بيان تداخل النصوص الذي قد يؤدي إلى تشاكلها، حتّى تصل إلى درجة لا يمكن للقارئ أن يميّز فيه من نظم أولا ومن الذي أخذ عن الثاني، كما أنّ الأسبقية التاريخية في نظره لا تعطي المزيّة لصاحبها فقد تجد لدى المتأخر ما عجز المتقدم على الإتيان به.

ويواصل قوله من أجل أن يكشف السارق عن غيره، يقول:« وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الألفاظ ولا سارق المعاني، ولا من يخترعها، ولا من يلمّ بها، ولا من يجاهر بالأخذ ممن يكاتم به، ولا من يخترع الكلام اختراعا، ويبتدهه ابتداها ممن يُروى فيه، ويجيل الفكر في تنقيحه، ويصبر عليه، حتّى يتّخلص له ما يريد»[3]، وهذا فيه بيان الفرق بين من يسرق الألفاظ والمعاني وبين من يستخدمها بعد تنقيحها وإمعان النظر فيها، لأجل أن تكون فيها بصمته الخاصة التي يتميّز بها أسلوبه، وعلى هذا الأساس يستطيع القارئ المحذق أن يميّز بين الصنفين.

5- المقبولية:

يظهر جليا اهتمام" الباقلاني" بالمتلقي، وذلك من أجل اكتمال عملية التواصل التي يتم من خلالها إنتاج النص، يقول:« وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على

[1] – الباقلاني، المصدر نفسه، ص 122.

[2] –نفسه، ص279.

[3] الباقلاني، المصدر السابق، ص122.

الأذن ولا مستنكر المورد على النفس، حتّى يتأبى لغرابته في اللفظ عن الإفهام، أو يمتنع بتعويص معناه عن الإبانة». [1]

يوجه الكاتب عنايته دائما بالمتلقي الذي سيضع نصه بين يديه، و" الباقلاني"وإن لم يصرح بوجود هذا المتلقي، إلاّ أنه يدرك أهميته جيّدا، على اعتبار أنّ هذا القارئ هو الذي سيعطي للنص صورته النهائية من خلال عملية تقبله وفهمه من ثمّ القيام بتأويله. والنص المذكور أعلاه يبيّن ذلك جيّدا، إذ يكون لزاما على الكاتب أن يراعي حالة المتلقي فيوضح ويبين، من ثمّ يبتعد عمّا هو مستكره للنفس، ثقيل على المسامع، وهذا من أجل إدراك غاية الفهم والإفهام.

وممّا لاشكّ فيه أنّ كل متفحص لكتاب" الباقلاني" يلفيه يؤكد في كذا من موقع على مدى أهمية مراعاة حال المتلقي، يقول:«وإذا علا الكلام في نفسه، وكان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس... ويرمي السامع من وراء رأيه مرمى بعيدا. وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة، وبحسب ما يترتب في نظمه، ويتنزّل في موقعه، ويجري على سمت مطلعه ومقطعه، يكون عجيب تأثيراته، وبديع مقتضياته»[2]، فلا يمكن أن يكتمل أيّ نصّ دون وجود متلق لهذا النّص، فعلى قدر حسن النظم والتأليف يكون الانفعال لدى المتلقي.

6-الإعلامية:

يقول" الباقلاني": « قد علم أنّ تخيّر الألفاظ للمعاني المتداولة والأسباب الدائرة بين النّاس، أسهل وأقرب من تخيّر الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول»[3]، فيبقى بين المتداول والمبتكر بَوْنٌ بعيد، على أن يكون المبتكر مستحبا لدى القراء لما فيه من تشويق، وتحدّ لهذا القارئ، لهذا يقول في موضع آخر مؤكدا على أنّ الابتعاد عن المألوف له مزيته الخاصة في عرض المعلومات « ...لأنّ الذين اختاروا الغريب فإنّما اختاروه

---

[1] نفسه، ص 17

[2]- نفسه،ص277.

[3]- الباقلاني، المصدر السابق، ص 42.

لغرض لهم...»[1]، وهذا فيه تتطابق إلى حدّ بعيد مع ما جاءت به لسانيات النّص في مبحث الإعلامية، ذلك أنّ الكاتب/المتكلم في حرص دائم على أن يفاجئ المتلقي ويكسر أفق التوقع لديه، وهذا ما يدفعه للإتيان بما هو غريب من أجل تحقيق هدفه المنشود.

لقد لاحظنا سابقا أنّ الإعلامية كلما ابتعدت عن المألوف وجسدت اللامتوقع في النص،زادت نسبة حضورها فيه، و"الباقلاني" في قوله هذا يشير إلى المعنى المبتكر والمعنى المتداول،فالمعاني المتداولة بين الناس تكون سهلة المأخذ قريبة المنال، وكلما كان اللفظ بارعا والمعنى مبتكرا كان ذلك ألطف وأعجب،ومن ثَم فإنَ المعنى البارع هو المعنى الدال على قدرة صاحبه على الإتيان بما هو جديد مبتكر متحديا بذلك القارئ، «ويظل هذا المعنى المبتكر ذا خصوصية تمنعه من الذيوع والانتشار عكس المعنى المتداول الذَي أصابه جميع النَاس وتداولوه»[2]، وهذا يعني أنّ المعنى المبتكر يكتسب خصوصية التفرد من خلال عدم انتشاره بين النّاس.

ولعلّ من المخرجات البحثية التي تلازمنا حين نفرغ من هذا الموضوع ، أنّ لسانيات النص تروم الوقوف على دلالات النصوص، باعتبارها أكبر وحدة لغوية، متجاوزة في ذلك دراسة الجملة مع أخذها بعين الاعتبار المتلقي قصد إتمام العملية التواصلية بين الباث والمتلقي .

وتؤكد أغلب التخريجات التي تصب في قالب النص على خاصية الترابط والتماسك النصي، أما عن البلاغة فهي السابقة التاريخية عن لسانيات النص مع وجود التشارك في الفعل التأثيري على المتلقي، وفهم خاصيته.

اهتمت البيئة البلاغية العربية بالمتلقي للخطاب مع تتبع خواص الكلام داخل الملفوظ والمكتوب، ولعل ملاحظة الباقلاني الثاقبة للقرآن الكريم على أنه وحدة متكاملة، ذو معايير نصية وجيهة ومحددة، واهتمامه بالنص ووحدة موضوعه الذي يساهم بدرجة كبيرة في تماسكه، لهو أكبر دليل على العلاقة الوطيدة بين الدراسات اللسانية وحقل البلاغة العربية.

---

[1]– نفسه ، ص 117.

[2]– أحمد يوسف علي، قراءة النص دراسة في الموروث النقدي، السابق، ص236.